

الْفَضْلُ الْأَوَّلُ

(أ) من كان يظن أن الله لا ينصر محمدًا ﷺ

فليمدد بسبب

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مسليًا لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١] ^(١) يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال عز وعلا: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].
قال ابن كثير رحمه الله:

قال ابن عباس: «من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أي بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي سماء بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ يقول ثم ليختنق به» ^(٢).
ومما ينير بصيرتك - أيها القارئ - ما من الله به على رسولنا من عصمته له من الناس، وكفايته من آذاه قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

(١) «تفسير ابن كثير» تفسير سورة الأنبياء [٤١].

(٢) «تفسير ابن كثير» سورة الحج [١٥].

وقال: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزُّمَرُ: ٣٦]، وقال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الزُّمَرُ: ٩٥]. لما نزل: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٧]. صرف حُجَّابِهِ، وقال: (انصرفوا فقد عصمني الله).

فيكفينا أنه عَلَّمَنَا الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مكث بين أعداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سنة، وبين مشاهبيهم من المنافقين واليهود عشر سنين. فما تمكن أحد من إيصال أذى إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل كفاه مولاة شر أعدائه حتى أظهر الدين وتممه.



(ب) هكذا كان سلفهم

من قبل وإيذائهم للنبي ﷺ

منذ اللحظة الأولى التي أعلن النبي فيها الدعوة إلى الإسلام والتوحيد شنت قريش عليه الحرب، فعندما صعد النبي ﷺ على جبل الصفا ودعا جميع قبائل قريش إلى الإسلام والتوحيد، انفض الناس عنه وتفرقوا قال له أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلوات بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله^(١).

وقد نالت دعوته مزيداً من القبول، ودخل الناس في دين الله واحداً بعد واحد، وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يبصرون^(٢).

بداية الحرب على النبي ﷺ

لم يمض على دعوة النبي ﷺ أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب، في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمنة الكاهن ولا سجعته. قالوا: فنقول: مجنون

(١) «الرحيق المختوم» ص [٨٥].

(٢) المصدر السابق ص [٨٥].

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أصله لعزق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك^(١).

وبعد أن اتفق المجلس على القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره^(٢).

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عكاظ ومجنة وذئ المجاز يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه، يقول: لا تطيعوه إنه صابئ كذاب^(٣).

ثم أخذت قريش تفكر في أساليب شتى تقضي بها على النبي ودعوته، وقد بسط صفي الرحمن المباركفوري في كتابه «الرحيق المختوم» هذا الموضوع بسطاً تاماً^(٤) من هذه الأساليب:

- ١ - السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك.
- ٢ - إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة.
- ٣ - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم بالقرآن، ومعارضته بأساطير الأولين.
- ٤ - الاضطهادات.

(١) انظر «ابن هشام» (٢٧١ / ١) «الرحيق المختوم» ص [٨٥].

(٢) ابن هشام (٢٧١ / ١) «الرحيق المختوم» ص [٨٦].

(٣) انظر «البداية والنهاية» (٧٥ / ٥) و «كنز العمال» (١٢ / ٤٥٠ / ٤٤٩).

(٤) انظر «الرحيق المختوم» ص [٨٦ - ٩٠].

هكذا كان إيذاء الأسود بن عبد يغوث الزهري للنبي ﷺ:

هو الأسود بن عبد يغوث، الزهري، القرشي، من بني زهرة، أخوال رسول الله ﷺ، كان إذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض استهزاءً بهم لأنهم كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خشن وكان يقول لرسول الله ﷺ سخرية: أما كلمت اليوم من السماء؟^(١)

هكذا كان إيذاء النضر بن الحارث العبدري للنبي ﷺ:

هو النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن قصي كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم، قال النضر: هلموا يا معشر قريش فإني أحسن منه حديثاً ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين.

وفيه نزل في سورة لقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦٠ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُكْتَكِبًا ۖ كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّطَهُ بَعْدَ إِلِيمٍ ۝٦١﴾ [لُقْمَانُ: ٦٠-٧].

وكل هؤلاء انتقم الله منهم، كما قال تعالى في التنزيل في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٥٠ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥-٩٦] وقد وضع الله (جل ذكره) الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه، لأن الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة، فمنهم من قُتل كأبي جهل، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لهب، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة^(٢).

(١) انظر المصدر السابق ص [٣٧].

(٢) «نور اليقين» في سيرة سيد المرسلين ص [٣٨].

هكذا كان إيذاء اليهود للنبي ﷺ

اليهود ليسوا بأقل من مشركي العرب حقداً وكرهية للنبي ﷺ فكانوا يتمنون موته والخلاص منه ﷺ .

ذكر عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: أن امرأة يهودية أهدت إلى النبي ﷺ شاة مصلية بخير، فقال: «ما هذه؟» قالت: هدية، وحذرت أن تقول: من الصدقة، فلا يأكل منها، فأكل النبي ﷺ، وأكل الصحابة، ثم قال: «أمسكوا» ثم قال للمرأة: «هل سممت هذا الشاة؟» قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «هذا العظم» لساقها وهو من يده؟ قالت: نعم قال: «لم؟» قالت: أردت أن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس وإن كنت نبياً، لم يضرك قال: فاحتجم ﷺ ثلاثة على الكاهل، وأمر أصحابه أن يحتجموا، فاحتجموا، فمات بعضهم^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: احتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة، حججه أبو هند بالقرن والشفرة، وهو مولى لبني بياضة من الأنصار، وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي، فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر حتى كان هذا أو انقطاع الأبر مني» فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً، قاله موسى بن عقبة^(٢).

وقال رحمه الله: ولما احتجم النبي ﷺ احتجم في الكاهل، وأقرب المواضع التي يمكن فيهما الحجامة إلى القلب، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجاً كلياً، بل بقي أثرها مع ضعفه لما يريد الله سبحانه من تكميل مراتب الفضل كلها له، فلما أراد الله إكرامه

(١) صحيح: عبد الرزاق (١١ / ١٩٨١٤) والحاكم (٣ / ٢١٩ / ٢٢٠): حديث [٤٩٦٧].

(٢) «الطب النبوي» ابن القيم ص [٩٤].

بالشهادة، ظهر تأثير ذلك الكامن من السم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وظهر سر قوله تعالى لأعدائه من اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فجاء بلفظ كذبتم بالماضي الذي وقع منه، وتحقق، وجاء بلفظ: «تقتلون» بالمستقبل الذي يتوقعونه وينتظرونه، والله أعلم^(١).

ومما أذنت به اليهود النبي ﷺ السحر، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «سحر رسول الله ﷺ حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتين، وذلك أشد ما يكون من السحر»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنوه نقصاً وعيباً، وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما»^(٣).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ كأنواع الأمراض مما لا يقدح في نبوته، وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخله في شيء من صدقه، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث لسببها، ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان»^(٤).

(١) «الطب النبوي» ص [٩٥].

(٢) انظر «صحيح البخاري» [٧٥٦٥]، ومسلم [٢١٨٩].

(٣) «الطب النبوي» لابن القيم ص [٩٥].

(٤) المصدر السابق ص [٩٥].

هكذا كان إيذاء أهل الطائف للنبي ﷺ،

قعد أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه، فخلص منهم وهما يسيلان في الدماء، فعمد إلى ظل نخلة وهو مكروب^(١).



(١) «الجزء من جنس العمل» (١/١٠٢).